

(كردفان)

قبلة الغريب وبداية الملتقي ... تختال لتنادى على فتاهها، وتحشو
النفس آمالاً ، فلا غرو، لكن تمزق الأحشاء ما عاد المفارق أهله ، والضم
بالصدر، أصبح مسلوب القرار، وانفراج سريرة (ود حمدان)، يفرط كثيرا في
التجاهل واللامبالاة ، والمشية المشبوبة، تستند بعكازة على ساعد الزمن ،
فقد صار الخيال مجدولاً على فتات المخزون من الذكرى، و أصبح مسبلاً
على شتات أيام الزوال،

هنا تحت التراب، تكمن علة المحصول، حيث يسري الدود، والشعبان،
والسوس، والنمل، والقمل أحياناً، فيختلط هذا وذاك، وتتعدر الرؤيا، ويبكى
(الباهي) على الفرقة، على الكلمة، على ماض ما زال تواقاً يطوف في
الدنيا بأجمعها ، على فكر، على بدن بالهم منشغل.

تدور الرحي وتبدو (كردفان) أزهى ما تكون، يأتي "العيش" و "الديب"
و ناس (آمنه) و ناس (عبد الله) " و (شديرة الغبيش)،

(ينم (الباهي) و ينوني كمان... بي (نضماً) بعرفو براه، ونايملو
فوق رايأ بخبرو براه... يدغدغ في عويناتو بي إيدو الملانة تراب، والايدي
التانية مشغولة بالعكاز...)

(الليلة يوم العيد...)

داير اشوف أمي، وأشوف طير البقر،

و (شديرة) الخروب، و شديرة القضم ،
داير أصرر نعيجاتي، واشم إيدي،
وآكل "البريدة" باللبن،
قبال طلوع الشمس،
مع شراب الشاي.)

ينوني (الباهي) بي وجعة، ظاهرة خطوطها في (وجهو)، التقول
خطوط (كنتور)، وهو يتحسر، و يعض على بنان أصابع كساها الندم،
ناعياً أيام طفولته المفقودة، التي كستها أثواب البراءة، والحنين الدافئ،
في فريقو (الخت) فوق (القوز) (الوراهو) الحلة:

حليل أيام الفريق،
أيام الوليدات تمشي الزرع،
وتقبض العتاب،
تسقيه موية مطرنا الما غشاها تراب،

نقية لو شفت ...يا يمة،
موية الفولة ... حلوة حلوة السكر،
وموية بيرنا ... بير حمدون ...
حلوة حلوة السكر،
وحلوة حلوة المريود لمن يقول لي سلام،
ويخت إيدا فوق إيدي،

تشابهت البقر على (الباهي) الذي أصبح مطية الذكريات، و نسج الخيال، وعماد الخطوط المبهمة، فاستحال عليه التعريف والتخصيص، فأدرج الكل في قائمة الذكري، التي ما بدأها إلا وانتهى إليها، وما خرج منها إلا وبدأ فيها.... فحينه يتزايد و..(يقمُز كلامو من حة لى حة)، في محاولة منه، لتجميع شتات ما تناثر من ذكريات ماضٍ طُمست معالمه، وتوارت آثاره...

بحن لى الرميلىة...

الفى قفاها فريقنا،

وكتين المطر،

يكركر لى رعيذاته...

ويتوسم فى بريقاته،

تلقيني يا الحلوة .. بين الحلة والبلدات،

بلملم فى ورق غبيش.

وبى حمارى،

البخت على كتيفاته تيرابى..

وفوق سرجي،

بشب وأقول :

(باسملا يا السادات).

وين موسمنا..؟

وين كاجريب ترسنا..؟

وين حملتنا؟
وين صقارنا؟ يا حلوتنا.

يجوس (ود حمدان) في وادٍ وارفٍ من الذكريات ويتأمل، يشتعل بداخله
الرجاء، والتوقع، واقتراب ساعات الصفاء، التي كثيراً ما توارت عن
خياله.....

وفي المرواح...
بجيني النويح.. نويح دوكتنا،
والعواصة في اديتك..
تلوح لي ،
تنادينى وتقول لي:
تعال اتعشى!
تعال يا عشاى.. ضوق الزاد،
ان شاء الله جديد..
ونشوفه فيك جديد،

تغيرت نبرات صوتها، ومحتوى حديثها.. فصارت تدس من الكلمات التي
يملؤها الحنين... ويضمها الأمل الدافئ... ذلك الذي يجوس بداخل نفس
كل أم رءوم، مشبّعة بالتمني وحسن النوايا...

يوم الحنة، والنزغرودة، ورمية المردوم،
يوم الصفقة، يوم السيرة لى ضريح الشيخ،

أشوفك تقدل وتقطع الريشات،
وتقول: تعالى يا أمي ... زغردي لي ، وصفقي لي،
حليك (إت) يا وليدي.

بلا دليل أو قبس من ضياء، تتدفع الرغبات، كانسياب الزمن على أمل
قريب مبتغى، وتتشابه وحدات التكوين في نواحي (كردفان)، فتقوى العزم
على استجلاب الخريف والضياء ، فتغيم السماء!

إن خريف (كردفان) كما هو الحال، محبب لنفوس الكبار والصغار،
حتى الذين لا يكتبون أو يقرؤون، الذين يزرعون الأمل ويبدرونه في
مواضع المعاناة، يطيب لهم خريف (كردفان)، ويسعدون لرؤية البرق
الخاطف، وتسطو على نفوسهم نوبات الكآبة والملل، إذا ما أطل الظلام
على غير أوانه ، أو إذا ما غاب القمر وانطوى، خلف غياهب ما تراكم من
سحاب ، أو إذا غربت شمسهم، وتلاشى بريق سناها، عند الشروق....

وقتها تبدو الحال لدى (ود حمدان) وكأن شيئاً لم يكن، لقد صاحبتة
الوحشة أياماً، وأنهكت كاهله النوائب آجالاً، فغدا مطية لكبوات الدهر،
وأصبح لا يضيره أو يغض مضجعه ما يغض... فرغباته لماضيه تتجدد،
يمني نفسه ب..(الونسة)، مع (ناس آمنه وناس عبدالله)، ولى أمه
يقول...

وين ناس آمنة؟

يا أمي؟

وين عبد الله ود عمى ؟
تلقاه ديمة يصرر فى نعيجاته،
وقت السرحة،
باله كُّله فى حميلاته،

رويان عبد الله..
لبنه ديمة وفير،
ينقط تف..تف..تف..
يكب يا حلوة فى الدورية وفى كبروسه،
يشرب... ويشرب.. (ويجغم)...
ويسقي لى وليداته،

شفته كثير بيحلب شق..
والشق الثاني... لى حميلاته،
بدورها تعيش..
تكبر تجيب العيش،

هنا يصبح (العيش) غاية منها تبدأ الحياة الهانئة، ويبدأ استجلاب
الرفاهية والدعة، واستحداث المشروعات وتنفيذها، ومن بينها دفن العيش
وادخاره، للكفاية المستقبلية....

ارادب فوق ارادب ... أخوى عبد الله،
بدفن العيش،

ووقت الحوبة ..
عبد الله مونتا في مظمورتا،
ما بدور يشيل عيشا للتجار،
وما بدور فضيحة الجار.

ثم ماذا بعد...؟؟؟

أيكنتي " ود حمدان " بنشر الذكريات على الرقائق؟ تارة تمشي على
عجل، وأخري قد يخطئ القارئ في تحديد مداها ، واستتباط الذات، ف..
(الفقر) و (القفر)، عنوانان شبيهان لديه، وان شابهما التقديم والتأخير في
توالي الحروف .

بما لا يجدي لن ينتفع " ود حمدان " وبما يجدي يعزف " ود حمدان "
ويفغر فاهه، بغية التقاط الكلمة التي تتسجم ونواياه ، فيعود القهقري، لا
ليترجع، إنما ليجمع قواه، وتارة أخري يسدل عليها ثوب القناعة القاتم،
كالدياجير، عند أطراف أودية (كردفان) في جوف ليلة من لياليها الخريفية
الباكية.....

حليل ضو لمبتنا لمن تلاعبه الريح... في ضلام الليل..
يروح تاركنا .. في ضلمتنا،
ما بنخاف .. ولا بنفتش الكبريت،
نواصل لي كلامنا .. في ضلام الليل،

يشكو (الباهي) حاله في غربة لملت عليه كل أنواع الهموم، وأشعلت
بدواخله نيران زبالات مغمورة، في فيض من الزيت حتى الاكتفاء، فأصبح
في ولهِ ممض، تشهت نفسه من خلاله ما تشهت، مما هو قابع في طي
المحال فيما يطارده من ظنون وتمنيات....

ووب علي أنا المشتاق أشوف

الديب،

واشوف الرمة في القيزان،

وصورة الدم .. وطعم الدم،

وتمامة المحريب،

وبيت القش،

وقولة عرت ...

وقولة تك ،

حليل بلدى..

وناس بلدى..

وقولة كر،

مع جدادي.

يرن بأذني (ود حمدان) صدى قديم، ما حسه إلا وقت انتقاص الزاد،
وضيق ذات اليد ، وقت اندفاع واندلاق السجية، في سفح الذكريات الوارف
000 وقت اجتياح الجذب، للأقحوانة الواعدة، وقت الفاقة والضياع، وقت
العنجهية الهينة المزاج....

يري كل شيء، على غير المعتاد، والصدى ينزاح في تتابع كخيطة الكساء الجديد، والتميز أصبح في زوال، ساعة ما بين المغيب والشروق، حيث ينطفئ كل شيء، حتى الرنين عبر الصدى، إلا ما قد كان يتبختر ما بين الغطاء وما بين الجفن القلق، في ذبذبات منتظمة، تسلك طريقاً تخللها كل ما أنتجته قسوة الطبيعة، بعد نسج من الكساد والبيات والنسيان.....

غمرت (الباهي) نفحات إشراق الشباب، التي طوفت به، حيث أصبحت نظراته تائهة، فيما بدا من نضرة الوادي الغارقة في مياه الخريف، بعد أن عجنت الأمطار طيات الرمال، لتخرج أذينات حشائش خضراء، و...

"(بصل الكلاب)، و (السلع)، بعد ما شم ريحة (ود عربان)،
(وكتين) شق بلاد (ود الجهينة) العصر، بي حماره، بعد ما تيرابها قام،
و جارلو (غسن) غصن شوك....."

ما بتخاف الله ياود الناس؟

دا ما عرقي.. ودم قلبي،

دا كل الداخرو لى ولدي،

دا ما (مونتني) وعمار عيشتي،

دا كل الخاتو لى كبري...

ولى غنمي... ولى أهلي،

تجرجر فيه (غسن) الشوك،

ما بتخاف الله يا الدخري؟

يتداعى الحديث المرُّ من بين مفتر (ود الجهيئة)، تغمره ذكريات
أضحى لها طعم خاص، قد يساعد في تضميد جراحاته النازفة...

زمان وكتين الانجليز ختوا للقطر دربين،

وحبسوا الموية من ترسي،

ومن...

(طيني) الوارثو، من زمن جدي ... وجد جدي،

وحاتك كنت ما بهتم...

عشان الخير كثير عندي،

وعند أمي... وعند عمي،

وبيت أختي... ودار خالتي،

كان بي موية... كان بي لوبا،

باكل واشم إيدي..

الله يشهد ويشهد (عنيقريبي)...

البجرو في العصرية،

تحت حاحاية،

أو خشم قطية،

والبا عوضة تنوني فوق اضني،

وفى سروالاً كبير بلم كرعي.

ومن موية في كورية بشرب وابل رقي...
واخت بنيتي (السارة) في حكري،
(تقورد) لي... وتفلفل لي كمان دقني،

في (الوكت) داك...

وحاتك كانت كيلة عيشنا بي (ريالين)،
وكان (الأردب) بجيب (كبشين)،
و(غنماية) تحلب تف...
وبي (سخيلاتها)،

كان الموية ما بنضوقها لي يومين،
لبنا كثير وخيرنا وفير...
وبالنا طويل
وما بنبخل بي كثير وقليل،

ما الجود حارسنا من جدودنا قبيل...
نقول (حرّم)، وجيين... ا معلم الملين...

وما بنندم عشان،
الحاج بجيب قدحه،

وود التوم يجب كورية ..
بي ملاح لوبه فى العشوية،
وخالتي العازة
بي عصيدة دخن باللبن مسقية،

وكان لى الدومة!
(براده) ما بنقطع مني...
ووقت (الحوبة)...
بلقاه ديمة فى جنبى،

فى أرض الغربية والبعاد عن أرض الوطن، وافتقاد (الليم)، و(الحنية)،
و(شيلنى واشيلك)، ينادى (الباهي) ويناجى ما بالدواخل حيث يقول:

تعال الليلة شوف دارى...
وشوف (رمادى) ... و(سجم خشمى)،

جدادى السعيتة، فات ..
رحل منى،
و(حولين) لى، من لبن غنمى...
ومن (جيرة) ولاد عمى...

حليل الحاج حليل التوم...
حليل لبنى...

يمضى (الباهي) يؤلف رباط المحبة بين قدميه، فازدادا قريباً
وكبرياء، فظلت قدماه قريبتين من الثرى، وطوق الشح خطاه، فبخل على
المسافات الارتماء أمامه...

فبكى (الباهي) على أمل زوى وتجاذبه أيدي الظلام، فانتهى كل شيء،
حتى الخريز انتهى والهديل انتهى، والثغاء انتهى،

(حليل أهلي...)

حليل بلدي.....

وناس بلدي).

وقتها تبدو الحال لدى (ود حمدان) وكأن شيئاً لم يكن، لقد صاحبه
الوحشة أياماً، وأنهكت كاهله النوائب آجالاً، فغدا مطية لكبوات الدهر،
وأصبح لا يضيره أو يغض مضجعه ما يغض .

غريب أمر " ود حمدان " بكى كثيراً على (كردفان) ولياليها،
واستمع كثيراً ل.. (كردفان) وأغانيها، وتاه كثيراً ب.. (كردفان) ومراعيها،
وهوى أخيراً، وخبا نجم ضيائه، لقد عاد غريباً يخب في وحل الغربة القاسي

كان هذا كل ما يبدو، أما في رواية أخرى، فقد كان على النغيض ...
أضحى أليفا يورقه البعاد ، جال بنظره في رفق هين، كما تدلف الحسنة
لرسم الخضاب على البنان ، (برفق... رهيف...خفيف)، كان يحس بوطأة
البعاد والفرق، فيكتم كل ما يبدو، ويمشي هيناً على استحياء، بعيد الخيال،
ثاقب النظرات، واسع الإدراك، ويلتقي ب.. (كردفان) التي قال فيها الناصر
قريب الله :

أبدار ل..(كردفان) حنين،
لفتاها البعيد أم هي تنسى ؟
..و

أنت من كردفان مهجر روح،
لم تهاجر إلا لتنزل قدساً.
..و

ورعى الله في الحمى بدويات،
زحمن الطريق مشياً وجرساً.
هن في الحسن للطبيعة أشباه،
وان فقتها شعوراً وحساً.
باديات النهود غير وشاح،
صان نهداً وخان آخر مساً.
مثل قوس الغمام يعترض الغيم،
ولا يوسع السحاب طمساً.
..و

كردفان أشحذي سلاحك إنا،

سوف نجلي الطغاة عانين خرساً.
وسنملاً الأرض طهراً،
بعد أن دنست فساداً ورجساً.

..و

رب سد بناه ما سد فقرا لفقير،
ولا وقى الناس بأساً.
غير إشباعه المزارع رقاً،
ما أقلت يد المزارع فأساً.

هكذا يحس " ود حمدان " بالهجرة داخل الهجرة، فيبتعد عن موقع
ليصبح أقرب لآخر، وهكذا تتداخل الأمور وتتشابك، وتتشتت الآراء،
ويصبح الخلود ل..

(نسيج الذكريات،
ودفئ الربوع،
وحلاوة الرجاء،
لعودة الخريف والضياء معاً)